العدوان على العراق عبر التاريخ

أ.د. رأفت غنيمي الشيخ
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
ومؤسس معهد الدراسات الآسيوية
جامعة الزقازيق

مقدمة :

لم يكن العدوان الأمريكي البريطاني على دولة العراق المستقلة عضو الجامعة العربية وعضو منظمة المؤتمر الإسلامي. وعضو هيئة الأمم المتحدة في مارس وإبريل عام ٢٠٠٣م. أول عدوان يقع على العراق في تاريخه الطويل، إذ أن العراق تعرض لعدوان متكرر في تاريخه القديم، وفي تاريخه الإسلامي (الوسيط). كما تعرض لعدوان من الجارة الإسلامية إيران في بداية التاريخ الحديث على يد الشاه إسماعيل الصفوي الشيعي عام ١٥٠٨م، كما تعرض لعدوان القوات البريطانية في أثناء معارك الحرب العالمية الأولى في العقد الثاني من القرن العشرين.

وفي الصفحات التالية استعراض للعدوان على العراق في التاريخ القديم، إذا أن العراق بلاد الرافدين – شهد قيام دول وحضارات في فترة ما قبل التاريخ الميلادي. حيث استطاع العراقيون إقامة حضارة مزدهرة مازالت آثارها باقية زمن السومريين والبابليين وغيرهم. كما أن المغول بزعامة هولاكو حفيد جينكيز خان – غزوا العراق المزدهرة زمن الخلافة العباسية، وتم تدمير بغداد عاصمة الخلافة العباسية تدميراً بربرياً لقي فيه شعب العراق الاضطهاد بل المذابح على يد المغول الذين حاولوا تدمير التراث الحضاري العربي الإسلامي من مكتبات ومدارس ومساجد وقصور.

ويأتي العدوان الصفوي الشيعي من فارس المجاورة للعراق، في بداية

الـتاريخ الحديـث بهدف التوسع وإقامة إمبراطورية بزعامة الشاه إسماعيل الصـفوي الذي أقام دولة في شمال غرب إيران (فارس) عام ١٥٠٠م، ونجح في ضم بقية الأراضي الفارسية، ثم اتجه نحو العراق وضمها إلى دولته عام ١٥٠٨م حيث خرج التشيع على العراقيين بالقوة.

ثـم كـان العـدوان البريطاني في أوائل القرن العشرين أثناء سنوات الحـرب العالمية الأولي بدعوة طرد القوات التركية، وقد لقيت المدن العراقية ولقي الشعب العراقي ويلات الحرب من تدمير وضحايا.

وأخيراً جاء العدوان الأمريكي البريطاني خلال مارس وأبريل ٢٠٠٣م المستمر حتى الآن، ليثير أشجان العرب والمسلمين حول تكرار العدوان على شعب العراق وأرض العراق.

أولاً : العدوان على العراق
في التاريخ القديم

يمكن التأريخ لبلاد الرافدين (دجلة والفرات) بالسومريين الذين هم من أقدم الشعوب العريقة التي استطاعت وضع لبنات الحضارة الأولى في القسم الجنوبي من العراق القديم والذي عرف ببلاد سومر، ومن المعروف أن القسم الجنوبي من العراق كان في بداية العصور التاريخية للسومريين الذين سكنوا المنطقة الممتدة من حدود مدينة "نفر"[1] إلى أقصي الأراضي الجنوبية من وادي الرافدين، وقد عرفت هذه المنطقة في العصور التاريخية ببلاد سومر[2].

ولقد ازدهرت الحضارة في بلاد الرافدين على يد السومريين، وذلك في مختلف المجالات كالعلوم والمعارف والفنون والعمارة، واشتهرت بلاد الرافدين باختراع حروف الكتابة التي عرفت باللغة السومرية التي كتبت بالكتابات المسمارية، وهي تختلف تماماً عن اللغة الآشورية التي كان بعض العلماء قد توصل إلى حل رموزها.

ويرتبط بالسومريين ويجاورونهم إلى الشمال من منطقة سومر، الأكديون الذين هم من القبائل التي نزحت من جزيرة العرب واستوطنت العراق في وقت مبكر جداً وقد استطاع "سرجون الأكدي" قائد الجزريين (٢٤٠٠ – ٢٣٧١ ق.م.) فرض سيطرته على البلاد وتوحيد دويلات المدن، ومن ثم إقامة إمبراطورية واسعة الأرجاء عرفت بالإمبراطورية الكدرية نسبة

---

(١) نفر Nifrn كانت واحد من أشهر المراكز الثقافية والدينية في تاريخ الحضارة السومرية، وقد اندثرت تلك المدينة، وكشفت عنها عمليات التنقيب الحديثة.

(٢) تجمع معظم المصادر عن أن السومريين امتداد لأقوام عصور ما قبل التاريخ في وادي الرافدين، وأنهم انحدروا من شمال العراق إلى الجنوب، واستوطنوا في منطقة كانت على الأرجح تعرف باسم سومر ، والتي عرف السومريون باسمها في العصور التاريخية اللاحقة: صالح العلي وآخرون: العراق في التاريخ، بغداد ١٩٨٣م، صـ٦٨.

إلى مدينة "أكد"، التي اتخذها عاصمة له، والتي ما يزال موقعها غير معروف حتى الآن،. وقد عاش الأكديون جنباً إلى جنب مع السومريين وتفاعلوا معهم قبل أن يتمكنوا من الاستيلاء على دفة الحكم.

وكان الأكديون يتكلمون اللغة الأكدية التي هي فرع من فروع لغة الجزيرة الأم، كما أنهم استخدموا في كتاباتها الخط المسماري الذي استنبطه السومريون من قبل، ثم إن وجود الأكديين جنباً إلى جنب مع السومريين أدى بطبيعة الحال إلى تأثرهم بالحضارة السومرية مما يجعل من الصعب التمييز بين ما هو سومري الأصل وبين ما هو أكدي[٣].

ويعد سرجون الأكدي، الذي حكم في الفترة من ٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق.م. واحداً من أعاظم القادة السياسيين والعسكريين في التاريخ القديم، وقد استطاع في غضون فترة قصيرة بسط نفوذه على كل بلاد سومر، والبلاد الواقعة إلى الشرق من بلاد الرافدين (فارس) والبلاد الواقعة إلى الجنوب من إمبراطورية (الخليج) إلى جانب البلاد الواقعة إلى الشمال وهي بلاد سورية وخاصة مدينة "فينوي" و"آشور" و"ديار بكر" وجنوب شرقي آسيا الصغرى.

ولكن البناء الحضاري لبلاد الرافدين في عهد السومريين والأكديين تعرض للعدوان من جانب "الكوتيين" وهم من القبائل الهمجية التي كانت تستوطن أواسط "زاجروس" في منطقة همدان، الذين بقوا يسيطرون على بلاد الرافدين مدة تقترب من القرن من الزمان (٢٢١١ – ٢١٢٠ ق.م.)، والذين تعد فترة حكمهم من الوجهة التاريخية أولى الفترات في تاريخ بلاد الرافدين، حيث توقفت فيها عجلة التقدم الحضاري في كافة المجالات.

ولكن حيوية شعب بلاد الرافدين رفضت سيطرة "الكوتيين" على مقدرات الأمور في بلادهم، ومن ثم هب شعب العراق عام ٢١٢٠ق.م

---

(٣) صالح العلي وآخرون: العراق في التاريخ، بغداد ١٩٨٣ صـ٧٥.

بـزعامة زعيم سومري يدعي "أوتوحيكال" حتى تمكن من تخليص البلاد من حكـم الكوتييـن بالانتصار على جيوش الملك الكوتي "تريكان" الذي فر من أرض المعركة، ولكن المواطنين لاحقوا الملك المهزوم حتى ألقوا القبض عليه وجاءوا به ليركع عند قدمي الملك السومري "أوتوحيكال"(٤).

ولسنا هنا بصدد سرد تاريخ العراق القديم لأننا نركز فقط على ما فعله المعـتدون علـى بـلاد الرافدين في العصور القديمة، وكيف استطاع شعب العـراق طرد المعتدين، ولكننا نشير إشارات مختصرة إلى ملوك حكموا بلاد الرافديـن ودافعـوا عنها ضد المعتدين، منهم "حمورابي" البابلي من ١٧٩٣ ق.م. إلـى عام ١٧٥١ ق.م، الذي دافع عن البلاد ضد عدوان الأشوريين كما دافـع عن "أشنونة" الواقعة على نهر دجلة جنوب مصب ديالي، ووحد العراق ضمن حدود آمنة يسهل الدفاع عنها.

وبعد حمورابي ضعفت بلاد الرافدين بحيث استطاع الحيثيين في شمال سوريا الاستيلاء على بابل (١٥٩٨ ق.م.) ولكنه لم يستطع البقاء طويلاً، وإن كانـت البلاد سقطت تحت حكم "الكشيين" لمدة طويلة (١٥٩٥ – ١١٥٧ ق.م) التـي تعتـبر فترة مظلمة في تاريخ بلاد الرافدين، وهم من المنطقة الوسطي لسلسلة جبال "زاجروس" المعروفة الآن "بلورستان" – فارس.

وقـد تعرضـت بلاد الرافدين لعدوان من قبل الآشوريين والعيلاميين حيـث نهـبوا بـابل والمـدن الدينـية الهامة وبعد فترة قصيرة الآشوريين والعيلاميـين انتهي حكم "المشيين" في العراق عام ١١٥٧ ق.م، وعلى الرغم من اعتداءات العيلاميين المتكررة على البلاد ومحاولتهم تكريس الاحتلال إلا أن البابليـين لـم يذعـنوا لحكـم الأجنبـي، وثابروا على التخلص من حكم العيلاميين بشتى الوسائل، تزعم البابليين زعيم من مدينة "إيسن" اسمه "مردوخ – كابت – أخيشو".

---

(٤) المرجع السابق صـ٨٢.

ومـــن ملوك بلاد النهرين الذين استعادوا مجد البلاد ودافعوا عنها ضد المعتديـــن الملـــك "نـــبوخذ نصر" الأول الذي يعد من أشهر ملوك بلاد وادي الرافدين ممن استطاعوا مقارعة العلاميين ووضع حد لتجاوزاتهم واعتداءاتهم على البلاد (١١٢٤ – ١١٠٣ ق.م.)، أعاد خلالها هيبة الحكم للبلاد ورفع من معـــنويات الشـــعب بعد أن خيم عليه كابوس الاحتلال الأجنبي طيلة العصر الكيشـــي، ولـــم يـــنس البابليون ما فعله العيلاميون بهم عندما دنسوا معابدهم وسلبوهم أقدس ما عندهم وهو تمثال "مردوخ" رب الأرباب البابلية الذي نقلوه معهـــم إلـــى عاصمتهم(٥).وجاء الآشوريون من شمال العراق بزعامة ملكهم "ســـرجون الثاني" ٧٢١ – ٧٠٥ ق.م. فاستسلمت لهم بابل، كما انتهت مملكة عـــيلام علـــى يد الجيش الآشوري الذي تمكن من دخول وتدمير مدنها وفتح عاصمتها. وقد تم كل ذلك عام ٦٢٦ ق.م. إلا أن زحف الجيش البابلي بقيادة ولـــي العهـــد البابلي "نبوخذ نصر" الثاني اضطرهم للانسحاب إلى "كركميش" حيث وقعت معركة كبرى كان الانتصار الحاسم فيها للجيش البابلي.

وقد حكمت العراق خلال الفترة التي أعقبت سقوط الآشوريين، السلالة الأكديـــة، وكـــان عهدهـــا آخر عهود الاستقلال السياسي والحكم الوطني في العـــراق، وظلـــت البلاد تنتقل بعدها من احتلال لاحتلال حتى الفتح العربي، ومـــن أشـــهر ملوك الأكديين "نبوخذ نصر" الذي حكم في الفترة من ٦٠٤ – ٥٦٢ ق.م والـــذي جعل من بابل إمبراطورية واسعة، والذي حدث في عهده أســـر ثلاثة آلاف من سراة اليهود وعلى رأسهم ملك يهوذا في فلسطين "وحزقيال" النبي المعروف.

وحدث عدوان آخر ضد العراق من جانب الملك الفارسي كورش عام ٥٣٩ ق.م.، حيث اصطدم بالجيش البابلي الذي تقدم لصده عند مدينة "أوبس"

---

(٥) نفس المرجع السابق صـ٩٢.

قـــرب المدائـــن الحالية، وكان النصر لكورش، وقد أحرق كورش أهل "أكد" بالنار دلالة على قسوته وإلحاقه الضرر بالبلاد بعد انتصاره في "أوبس"، وقد ساعده في ذلك اليهود بدليل أنه بعد سقوط بابل أطلق سراح اليهود المأسورين وســمح لهــم بالعودة إلى فلسطين وبناء المعبد في القدس، وإرجاع ما حمله نبوخذ نصر.

ومـــا يؤكـــد الخيانة التي تسببت في سقوط بابل في يد الفرس، ذلك المـــثل البابلي القائل والذي يذكره هيرودتس: إن الفرس قادرون على احتلال بـــابل فقـــط عندما يلد البغل"، ومعرفة البابليين آنذاك بالخيانة التي لولاها لما تمكـــن الفرس نهائياً من احتلال مدينتهم الحصينة إلى جانب أنها كانت ساعة الهجوم خالية من قوة عسكرية كافية للدفاع عنها.

وهكذا تعرض العراق لعدوان متكرر كان في معظمه قادم من فارس، ممـــا يشـــير إلى أن العراق مستهدف عبر سنوات التاريخ من فارس أو عبر فـــارس، فإذا كانت أحداث التاريخ القديم قد سجلت موجات من هذا العدوان، فإن التاريخ الوسيط سجل عدواناً عبر فارس من جانب المغول الذين اجتاحوا وســـط آســـيا الإســـلامية وفارس ثم العراق، كما تم العدوان على العراق من فارس مع بداية العصور الحديثة عام ١٥٠٨م على يد لشاه إسماعيل الصفوي شاه فارس الشيعي.

ثانياً : العدوان المغولي على العراق

أصبح العراق وفارس جزءاً من الدولة الإسلامية الكبرى التي كانت المدينة المنورة بالحجاز عاصمة لها زمن الخلفاء الراشدين، وفي عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه اتخذ من مدينة الكوفة ببلاد العراق عاصمة للدولة، حتى إذا تولى قيادة الدولة الإسلامية معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية فاتخذ من مدينة دمشق عاصمة للدولة الإسلامية من عام ٤٠ إلى عام ١٣٢هـ حتى إذا نجح العباسيون في إنهاء حكم الدولة الأموية، وإقامة الخلافة العباسية اتخذوا من العراق مقراً لحكمهم، وبني الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور مدينة بغداد التي أصبحت عاصمة للخلافة وللعراق منذ ذلك التاريخ، وقد وضع أبو جعفر المنصور بنفسه تخطيط المدينة، وبدأ البناء عام ١٤٥هـ وتم البناء عام ١٤٧هـ، وأطلق عليها اسم "مدينة السلام" وإن كان الناس يسمونها في الغالب "مدينة المنصور" كما أنهم أطلقوا عليها وعلى ما شملته من أبنية أخرى عند توسعها اسم "بغداد" الذي كان يطلق على هذه المنطقة منذ أيام البابليين.

وقد جعل أبو جعفر المنصور مدينته مدورة، وأحاطها بخندق وسورين بينهما فسحة واسعة، والسور الداخلي أعرض سمكاً وأعلى ارتفاعاً وأحكم بناء، وعليه شرافات كالأبراج، وجعل لها أربعة أبواب ضخمة سمى كل باب باسم الإقليم الذي يواجهه، وهو باب الشام، وباب الكوفة، وباب البصرة، وباب خراسان. وفوق كل باب قبة وحصّن كل مدخل بباب ضخم من حديد يمكن إقفاله[٦].

---

(٦) صالح العلي: المرجع السباق صـ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

وقد شهدت بغداد عصراً من الازدهار العمراني والحضاري في العصر العباسي الأول حيث امتدت الدولة العباسية إلى أواسط آسيا، وازدهرت الثقافة العربية الإسلامية وأصبحت الحضارة العربية الإسلامية أزهى الحضارات الإنسانية في عالم ذلك الزمان، حيث كانت الحضارة الرومانية في أوروبا تعيش عصراً من الانحطاط الحضاري بسبب سيطرة الكنيسة على الفكر في أوروبا، وفي العصر العباسي الثاني أخذت الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري في الضعف والتفكك لأسباب، منها اعتماد العباسيين على الفرس والأتراك، وسوء معاملة الخلفاء لأعدائهم السياسيين من أمويين وعلويين مما كان سبباً في انسلاخ كثير من أجزاء دولتهم كما حدث في الأندلس وشمال أفريقيا، وفي المشرق الإسلامي وظهور حركات هدامة مثل حركة "صاحب الزنج" من ٢٥٥ - ٢٧٠م "والقراطمة وغيرهم"(٧).

وفي ظل ضعف الخلافة العباسية وتفككها إلى دويلات في المغرب ودويلات في المشرق، جاء المغول من الصين عبر تركستان متجهين إلى فارس والعراق والشام ومصر وأوروبا إن استطاعوا، فمن هم المغول ؟

وحتى نتحدث عن الغزو المغولي للعراق عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م لابد أن نشير إشارات سريعة إلى أصل المغول وزحفهم غرباً. إذ تعتبر منغوليا موطن أصلي للمغول وهي التي في أوساط آسيا جنوب سيبيريا وشمال التبت وغرب منشوريا وشرق تركستان بين جبال التاي غرباً وجبال "خنجان" شرقاً. وكان المغول القدماء قبائل رعاة لكل قبيلة موطن تعيش على أرضه وتتحرك في أرجائها، ولكل قبيلة زعيم يأتمر كل أفراد القبيلة بأوامره، وكانوا وثنيين يعتنقون "الشامانية" ثم اعتنقوا البوذية التي وفدت إلى موطنهم من التبت

---

(٧) مصطفي طه بدر: محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول، القاهرة ١٩٩٩م صـ١٧، وتذكر بعض المصادر أن بناء بغداد تم عام ١٤٩هـ وليس عام ١٤٧هـ، هو الرأي الأقرب للمعقولية.

ويتميزون بالفروسية وحب الغزو والقتال. وكانوا قساة القلوب وحشيي الطباع لم يسلم إنسان ولا حيوان ولا زرع من ضررهم وشرهم وأذاهم.

وفي أواخر القرن الثاني عشر الميلادي نجح زعيم المغول "تيموجين" في توحيد المغول تحت قيادته بعد أن تخلص من مناوأة التتار الذين كانوا في ذلك الوقت أكبر القبائل المغولية، حتى كان الصينيون يطلقون اسمها على جميع الأمم المغولية التي عز عليها أن تتقدمها أمة المغول.

وقد تم بذلك ما كان يرمى إليه "تيموجين" من توحيد كل القبائل التي كانت تقيم في منغوليا لسلطانهن وهكذا أصبح "تيموجين" وتحت حكمه كتلة كبيرة، واستحق لقب "جنكيز خان" ومعناه ملك الأقوياء أو الملك صاحب القوة والبطش الذي منحه له مجلس عام من زعماء المغول عند اجتماعه عام ١٢٠٦.

بدأت غزوات جنكيز خان المدمرة بالقضاء على الدولة الخوارزمية وقتل زعيمها جلال الدين منكربتي" في عام ٦٢٨هـ ١٢٣٠م واتسمت غاراته بالسرعة والبطش والوحشية لإشاعة البلبلة والفوضى والرعب في نفوس السكان، ومارست القوات المغولية في هجماتها أبشع أساليب الفتك والتقتيل[٨]، وكانت الدولة الخوارزمية تمتد من نهر السند شرقاً إلى كردستان وخوزستان والخليج الفارسي العربي غرباً، ومن سواحل بحر آرال وبحر قزوين شمالاً إلى المحيط الهندي جنوباً وتشمل بين أهم بلادها أذربيجان والعراق العجمي، وفارس ومكران وكرمان وسستان وخراسان وأفغانستان والبامير والصغد وما وراء النير[٩].

---

(٨) صالح العلي: مرجع سابق صـ ٥٤٦.

(٩) مصطفي طه بدر: المرجع السابق صـ١١١.

وجـــاء العـــدوان المغولـــي على العراق في الوقت الذي كان الخليفة العباســـي المستعصم بالله يحكم الدولة الإسلامية من عام ٦٤٠/ ١٢٤٢م، ولم يكن لهذا الخليفة شخصية قوية تؤهله لحكم البلاد وزعامة العالم الإسلامي، فقد كـــان ليـــن العـــريكة مستضعف الرأي ضعيف التدبير غير عارف بمشاكل عصـــره، غـــير مهيـــب فـــي النفوس، وفي عهده تفرق الجند بعد أن قطعت أرزاقهم فلحق بعضهم بالشام ، واضطر بعضهم إلى التسول[١٠]

وقـــد قـــاد العـــدوان المغولي على العراق "هولاكو مانجو خان" الذي انتخـــب زعيماً للمغول عام ١٢٥١م/ ٦٤٩ حيث خربوا ديار بكر وميافارقين وتقدمـــوا حـــتى رأس عين" "وسروج" وقتلوا أكثر من عشرة آلاف شخص، وأســـروا مثل ذلك كما أنهم هاجموا قافلة كبيرة كانت في طريقها من "حران" إلـــى بغداد وحصلوا منها على غنائم وافرة. وقتلوا الشيوخ والعجائز وساقوا النساء والصبيان معهم[١١].

وفـــي أوائل شهر المحرم ٦٥٦هـــ/ ١٢٥٨م اتجه الغزو المغولي نحو بغـــداد حيـــث التقت قوات المغول وعددها ٢٠٠ ألف محارب بقوات الخلافة العباسية عند "الدجيل" -بين بغداد وسامراء- حيث انتهى اللقاء بتحطيم الجيش العباســـي ، ثم تقدم هولاكو من "خانقين" إلى بغداد فنزل الجانب الشرقي منها فـــي شهر محرم ٦٥٦، وأطبقت قواته عليها من كل الجهات ودخلوها في ٥ صـــفر ٦٥٦/١٢٥٨م، وفـــتكوا بأهلها سبعة أيام أو تزيد، ولم يفرق فيها بين الـــرجال والنساء والأطفال حتى لم يبق من أهل البلد ومن التجأ إليهم من أهل الســـواد إلا القليل ، وألقيت النار في معظم البلد كما تم قتل الخليفة المستعصم بالله مع أسرته[١٢].

---

(١٠) صالح العلي : المرجع السابق صـ ٥٤٦

(١١) مصطفي بدر : المرجع السابق صـ١٢٢ وهولاكو هو بن تولوي بن جنكيز خان، فهو حفيد جنكيز خان وتذكره بعض المصادر باسم "مانجو خان هولاكو".

(١٢) صالح العلي : المرج ع السابق صـ ٥٤٧.

وتذكر بعض المصادر عن سقوط بغداد في يد هولاكو أنه عندما جاءه الخليفة المستعصم خارج أسوار بغداد استقبله بالترحاب ، وطلب منه أن يأمر أهـل بغـداد بوضـع سلاحهم والخروج من مدينتهم بقصد عمل تعداد لهم ، فأجابـه الخليفة إلى ذلك وأرسل رسولا من لدنه نادى في طرقات بغداد على الـناس أن يرموا سلاحهم ويخرجوا من الأسوار ولما فعلوا ذلك أمر هولاكو المغول فانقضوا عليهم وقتلوهم[١٣]. وهكذا يتضح أن سقوط بغداد عبر التاريخ كـان يحـدث بالخـيانة أو المؤامرة ، حيث كرم أهليا من الدفاع عنها ضد العدوان.

وكانت خسائر العدوان المغولي على العراق البشرية تفوق الخيال، إذ يقدر بعض المؤرخين عدد القتلى من سكان بغداد بحوالي مليون نفساً، والذي لا شـك فـيه أن المدينة فقدت معظم سكانها في هذه الكارثة، كما أن الثروة الأدبـية والفنـية التـي سهر على جمعها خلفاء بنى العباس منذ أن اتخذوها عاصمة لهم ضاعت وأصبحت أثراً بعد عين[١٤].

حيث نهبت قصور الخلافة وقصور الأمراء، ودمرت المكتبات ودور العلـم وجميع المظاهر الحضارية بأسلوب وحشي بربري ، وبعد أن استولى الجـيش المغولي على بغداد ونهبها وقتل غالب سكانها، وبعد أن قتل هولاكو الخلـيفة المستعصـم وأعوانه وأفراد أسرته، أصبح الأمر في بغداد ليولاكو ولذلك نجده في نفس اليوم الذي تخلص فيه من الخليفة يعين الحكام فيها وفيما جاورها من البلاد .. وهذا يشير إلى ما فعله الأمريكان عند دخولهم بغداد في إبريل ٢٠٠٣م، كأن التاريخ يعيد نفسه ويذكرنا بتشابه الأحداث ؟؟؟[١٥].

---

(١٣) مصطفي طه بدر : المرجع السابق صـ١٧٧.
(١٤) مصطفي طه بدر : المرجع السبق صـ ١٧٨.
(١٥) صالح العلي : المرجع السابق صـ ٥٤٦.

وبعد سيطرة المغول على بغداد وما أشاعوه فيها من خراب وتدمير لم يتبق أمامهم أية مقاومة في العراق، فيما عدا بعض المدن التي حاولت المقاومة مثل أربيل وواسط والموصل. وقد استطاع نفر من الأسرة العباسية الفرار من العراق ومنهم "أبو القاسم أحمد بن الظاهر بأمر الله" الذي أعلنه سلطان مصر الظاهر بيبرس عام ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م خليفة باسم المستنصر بالله الذي لم تكن له من السلطة إلا الاسم[١٦].

(١٦) نفس المرجع : صـ ٥٤٨.

ثالثاً : الغزو الفارسي للعراق

استمر الحكم المغولي لمناطق في فارس وحتى العراق بعد سقوط بغداد حتى ظهرت بمدينة أروبيل بشمال غرب فارس بالقرب من الجزيرة الفراتية طريقة صوفية شيعية تزعمها الشيخ صفي الدين الذي ينتسب لأسرة تركمانية والمتوفي عام ١٣٣٤م وذلك في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، تلك الطريقة التي جندت اتباعها ليصبحوا مقاتلين تزينوا بلباس مميزة وبقلنسوة عليها اثنتي عشرة ذؤابة كناية عن الإمامية الإثني عشرية وكان لون الذؤابة أحمر، مما جعل الأتراك عند التقائهم بهم في معركة جالديران عام ١٥١٤م يسمونهم "قزل باش" أي أصحاب الرؤوس الحمراء[١٧].

ونجح إسماعيل حفيد الشيخ صفي الدين في التخلص من حكم بقايا المغول في فارس وأعلن قيام الدولة الصفوية في فارس ذات المذهب الشيعي عام ١٥٠٠م، واتخذ من مدينة تبريز عاصمة لدولته، ونشر المذهب الشيعي بين أهالي فارس بالشدة والعنف، مما دفع الكثيرين إلى اعتناق المذهب الشيعي الاثني عشرى باعتباره مذهب الدولة الصفوية.

بعد أن بسط الشاه إسماعيل الصفوي على كل الهضبة الإيرانية الفارسية، استولى على ديار بكر بين عامي ١٥٠٥ و ١٥٠٧م، ثم وجه أنصاره إلى العراق وكانت تطلعاته إلى العراق تعبر عن أسباب سياسية واقتصادية، فالعراق الزراعي الخصب يمكن أن يسد الكثير من حاجات سكان الهضبة الإيرانية الفقيرة، كما أن الاستحواذ على بغداد – قلب العالم الإسلامي – يعطي للشاه إسماعيل مكانة رفيعة لدى المسلمين، طبقاً للأحلام التي كانت تساوره[١٨]، بالإضافة إلى أن سيطرته على العراق وبه العتبات المقدسة

---

(١٧) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ١٩٦٥م، صـ ١٧٥.

(١٨) صالح العلي : مرجع سابق صـ ٥٦٤.

للشـيعة في العالم الإسلامي، بمدينتين النجف الأشرف وكربلاء يعطي للشاه مكانة كبيرة بين السلمين الشيعة في العالم الإسلامي، ويتيح لـه فرض مذهب التشيع الإثني عشرى على العراقيين السنة.

تقـدم الشـاه إسـماعيل الصفوي نحو بغداد للاستيلاء عليها من حكم ضـعيف علـى رأسه مراد سلطان "القره قونيلو" التي تضم شيراز والعراق، واستطاع بجيش كبير جعل في مقدمته فرقة من الفرسان القزلباش، أن يستولي على بغداد عام ٩١٤هـ / ١٥٠٨م بدون مقاومة تذكر، إذ أن حاكم بغداد وجد نفسـه أضعف من أن يستمر في الدفاع عن المدينة التي لا تربطه بها رابطة قويـة، لا سـيما بعـد انتشار الروح الانهزامية بين قواته التي أرعبتها أنباء الفظائع التي كان ينزلها الشاه إسماعيل بالقوى التي تقف أمامه.

وبدخـول الشاه إسماعيل الصفوي مدينة بغداد في ٢٠ جمادى الثانية عام ٩١٤ هـ / ١٥٠٨م، عين خادم بيك والياً على المدينة وأطلق عليه لقب "خلـيفة الخلفـاء" وهذا يعكس غطرسته وأطماعه ومحاولة فرض نفوذه على العـالم الإسـلامي. وبـرغم من أن الشاه إسماعيل دخل بغداد سلماً فإنه أمر بمذبحـة راح ضحيتها عدد كبير من السكان دون مبرر، وأشار المؤرخ "ابن شـرقم" إلى ذلك بقوله: فتح الشاه بغداد، وفعل بأهلها ما لم يسمع بمثله قط في سائر الدهور بأشد أنواع العذاب[١٩].

اتـبع الشـاه إسماعيل سياسة تفريق صفوف الشعب العراقي، فتظاهر بالاهـتمام بـبعض المراقد الدينية المقدسة، في كربلاء والنجف بينما كان في الوقـت نفسه يقوم بضرب القبائل وسلب أموالها، وباضطهاد قسم من السكان وتخريب مزاراتهم ثم غادر الشاه إسماعيل بغداد، وبعد أن ضم مدينة البصرة إلـى ممتلكاته سلك طريق "تستر" و"الحويزة" حيث مد سيطرته على الأحواز كلها...

---

(١٩) صالح العلي : الرجع السابق صـ ٥٦٥.

ظـــل الحكم الصفوى الشيعي جاثما على صدور العراقيين، حتى جاء العثمانـــيون إلى شمال العراق عام ١٥١٤م، لإيقاف محاولات الشاه إسماعيل الصـــفوى لغزو أراضى الدولة العثمانية في الأناضول ، حيث غزا السلطان ســـليم الأول العثمانـــي دولة الشاه إسماعيل الصفوى ودخل عاصمة ملكه في تـــبريز بعد هزيمة الشاة أمام السلطان سليم في جالديران عام ١٥١٤م، ومنذ هـــذا الـــتاريخ أصبح العراق ميدان حرب وصراع بين الصفويين الشيعة في فارس والعثمانيين السنة (٢٠).

استمر العراق ميدانا للصراع الصفوى العثماني لما يزيد عن مائة عام تقريـــبا، قـــاس خلالهـــا الشعب العراقي ويلات كثيرة ، حيث لعب الطرفان المتصارعان على الاختلافات. العراقية والمذهبية في الشعب العراقي، لتعميق الاختلافات بين العرب والأكراد والتركمان، وبين السنة والشيعة والمسيحيين، ممـــا أضـــعف الوحدة الوطنية للشعب العراقي وجعل العراقيين غير قادريين على مواجهة القوى المعادية للعراق .

---

(٢٠) رأفت الشيخ : تـاريخ العـرب الحديـث ، القاهـرة ٢٠٠٣ م ص٧٥-٧٦. وقـد اسـتمر الصراع الفارسي العثماني حول العراق من عام ١٥١٤ حتى عام ١٧٤٧ م .